

هل تغيرت شروط النهضة؟

ما أحوجنا لمطالعات فكرية هادفة تأخذنا بعيدا عن واقع معيش يوحى بجهل متفش و غفلة متأصلة في أعماق مجتمعنا المريض، ومؤلفات المفكر ”مالك بن نبي“ هي كتب قيمة تزخر بالأفكار والمعارف الهامة التي لا حصر لها ولا غنى عنها لأي أمة تبغي النهوض أو أي مثقف يهتم بتغيير واقعه ومحيطه.

في كتابه ”شروط النهضة“ يشبّه مالك العالم الإسلامي بمريض دخل صيدلية، فيعالجه السياسي بما ظهر من أعراض أمراضه السياسية، والفقيه بما ظهر من أعراض أمراضه العقائدية، فهو يتعاطى حبة هنا ضد الجهل وقرصا هناك ضد الاستعمار ويتناول عقارا يشفي من الفقر، ولكن لا خيط ناظم يذهب إلى أصل الأدوية و مبعثها ليشغل عليه بدل الانغماس في علاج الأعراض.

ويؤكد بن نبي أن الحضارة هي التي تلد منتجاتها وليس العكس، فليس واجبا لكي ننشئ حضارة أن نشترى كل منتجات حضارة أخرى فذاك ممتنع كما وكيفا، فحتى يرگّب العالم الإسلامي حضارته في زمانه هذا وجب عليه أن يرجع إلى تلك الصيغة التحليلية التي تصنع كل ناتج حضاري :

ناتج حضاري = إنسان + تراب (مادة) + وقت

ومعلوم أن وجود المتفاعلات غير كاف لحدوث التفاعل في الاتجاه الصحيح المراد، إذ لابد من تدخل مرگّب ما يؤثر في مزج العناصر الثلاثة.. إن هذا المرگّب ليس سوى الفكرة الدينية التي رافقت تركيب كل الحضارات خلال التاريخ.. فكما كانت الفكرة الإسلامية مرگّب الحضارة الإسلامية فكذا الفكرة المسيحية مهدت الطريق لحضارة الغرب، بالرغم من أن هذه الفكرة لم يُكتب لها أن تعمل و تؤثر إلا قرونا بعد ميلادها بخلاف الفكرة الإسلامية التي تزامن ميلادها و انخراطها في بناء حضارة المسلمين.



فميلاد الحضارة يبدأ بإخضاع الفكرة الدينية لغرائز الإنسان الفطري البدائي (عبر تنظيمها وليس القضاء عليها)، عند ذلك تتطور الحضارة وتنشأ مشاكل وضرورات جديدة في مسارها كنتيجة حتمية لإشعاعها و انتشار أفكارها، فتسلك منعطف العقل الذي يكون سلطانه على الغرائز أقل من سلطان الروح عليها.. ثم ما تلبث الغرائز أن تتحرر مع انكماش الفعالية الاجتماعية للفكرة الدينية شيئاً فشيئاً إلى أن تصبح عاجزة عن القيام بمهمتها، إذ ذاك يكون المجتمع قد دخل نهائياً في ليل التاريخ و تمت بذلك دورة الحضارة..

إن الإنسان قبل أن يتطلع إلى المستقبل كان لزاماً عليه أن يحطم تلك الأغلال التي تكبح تقدمه و يصفى ثقافته من الأفكار البالية ومن عوامل الانحطاط، هذا ما أطلق عليه مالك بن نبي التحديد السلي الذي يسبق التحديد الإيجابي الذي يصلنا بدوره بمقتضيات المستقبل.

بعبارة أخرى، يجب على الإنسان المتخلف أن ينفك عن الثقافة السائدة في عصر الانحطاط و يرسم معالم ثقافة جديدة تحدد له طريقاً نحو التحضر.

وهنا يشدد مالك على الخلط الذي يقع بين الثقافة و العلم، فالثقافة تعني مجموع الصفات الخلقية و القيم المجتمعية التي يُلَقَّأها الفرد منذ ولادته في الوسط الذي وُلد فيه، إنها المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه و شخصيته، إنها خصائص المجتمع التي يتساوى فيها العالم و الفلاح لأنها تعبر عن تقاليد و عواطف و استعدادات و أذواقٍ متناسبة متكاملة في مجتمع ما. وليست الثقافة علماً خاصاً لطبقة من الشعب دون أخرى، فهي كالدم، يحمل كريات بيضاء و حمراء، تحمل أفكار النخبة و العامة في سائل واحد يغذي حضارة الأمة. إن الثقافة لا علاقة لها بمرض العصر، بالتعاليم و امتطاء العلم للصعود إلى البرلمان أو جعله آلة للعيش.



وبعد الحديث عن الثقافة التي تُعنى بالإنسان، يأتي مالك إلى مشكلة **التراب** فيرثي حال أرض الأمة التي ينقصها التصحر من أطرافها و يلتهم خضرتها. ثم يتحدث عن العنصر الثالث، عن الوقت، الذي يشترك الناس في حظهم منه كما و يتباينون كيفاً، فَوَجِبَ أن يتعلم الشعب قيمة هذا العنصر الذي يحدد معنى التأثير و الإنتاج. إن الزمن نهر صامت يغُبر الأزل، نهر صامت حتى إننا ننساه أحياناً، ولكن كيف يسمع شعب ثرثار الصوت الصامت لخطى الوقت الهارب؟

أخيراً يؤكد مالك بن نبي أن للإنسان قيمتان : خامة طبيعية لا سلطان لأحد عليها من خارج الإنسان إلا أن يكون العطب داخلياً، و قيمة خارجية صناعية اجتماعية تشكّل البيئة التي قد تحوي مجموعة من العراقيل التي لا تتيح لمواهب الإنسان أن تأخذ مجراها الطبيعي نحو النبوغ. فإذا انصلحت القيمة الأولى انصلحت الثانية تدريجياً عبر تكاثف عمل الأفراد على أنفسهم وسلوكهم، وبعبارة أخرى: أخرجوا المستعمر من أنفسكم يخرج من أرضكم”.

يبقى أن أقول إن هذه الأفكار هي أفكار في متناولنا صالحة لزماننا وهي ما تزال قادرة على الإقلاع بنا لو قرأناها وفهمناها وعملنا بمقتضاها. وسنقطف ثمارها حتما حين نؤمن بها إيماناً عميقاً وتتحرك عواطفنا للتغيير من ذواتنا و بالتأكيد سيتأثر بها وبنا من حولنا من الناس. وتكون قوة التأثير بالغة مع التوفيق للجهود وبذلها بحسب الأفراد و المجتمعات.